تواصل (المدى) نشر هذا الكتاب الذي يقدم صورة عن ذكريات وانطباعات وآراء بول بريمر حول فترة عمله في العراق وتهدف (المدى) عبر ترجمتها ونشرها الكتاب إلى إتاحة الفرصة لقرائها للاطلاع ، كما تتيح المجال للباحثين والمحللين وسواهم من المعنيين لمراجعة مادة الكتاب فكرياً ونقدياً.. وبهذا تؤكد (المدى) ان جميع الآراء والمعلومات التي يقدمها بريمر هنا هي تعبير عن وجهة نظره الشخصية التي لا تلتقي مع وجهة نظر (المدى) التي واكبت فترة حكم بريمر وما بعدها بالنقد الصريح المعروف عن الجريدة وعن سياستها الواضحة في هذا المجال.

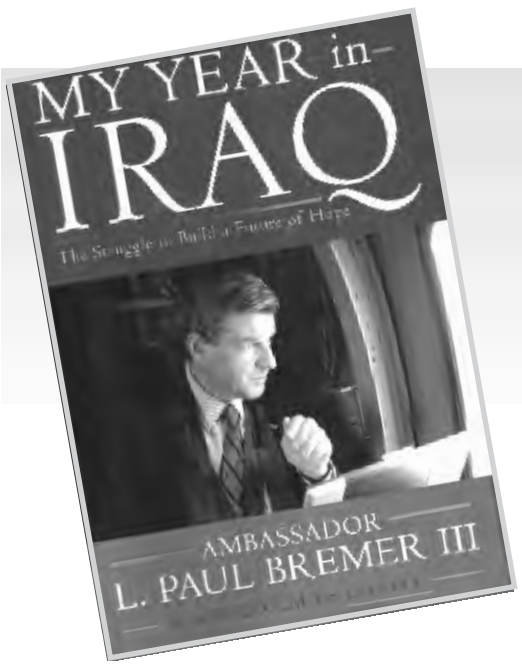

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة /د. عابد اسماعيل

(الحلقةالثانية والاربعون)

لا بدّ أن استنتاجات ديفيد كي كانت تمثّل أخباراً مريرة بالنسبة للبنتاغون. كانت بعض الاستخبارات عن أسلحة الدمار الشامل العراقية، قبل الحرب، قد أتت من منفيي حزب المؤتمر الوطني العراقي، بزعامة أحمد الجلبي، ونُقلت إلى مكتب وزير الدفاع. لم تكن توجد صور فيديو عن رؤوس تحمل غاز (سارين)، أو عينات من مادة (الأنثراكس)، لدحض الموقف السلبي المتواصل لوسائل الإعلام العالمية. كان رامسفيلد يريد للاحتلال أن يحرز تقدّماً سريعاً. وكان يريد أيضاً أن يخفّف من عدد الإصابات الأمريكية.

كنا متفقين حول هذه الأهداف. لكننا لم نكن متفقين حول كيفية تنفيذها.

بعد موجزي العسكري، في الصباح التالي، طلبت من الجنرال سانشيز أن يمكث لبعض الوقت. كنا بحاجة لتنظيف الهواء بخصوص تدريب الشرطة العراقية. بعد أربع أشهر من مواجهة المشاكل الصعبة، من كل الوجوه، توطّدت العلاقة بيني وبين سانشيز بشكل جيد. غير أن علاقتنا الرسمية لم تكن على ما يرام. كان البروتوكول العسكري يمنح السفراء رتبة من أربع نجوم، أما ريك فكان فريقاً، برتبة ثلاث نجوم. كان مسؤولاً، بشكل مباشر، أمام الجنرال أبي زيد في القيادة المركزية. غير أنني كنت ممثل الرئيس الشخصي في العراق، وكان القادة العسكريون ملزمين بأوامر "لتنسيق" أعمالهم معي.

"إننا لسنا على نفس الصفحة بشأن برنامج الشرطة، يا ريك."

تأمّل هذه العبارة على طريقته، "لا بأس، سيدي،" قال بحذر.

"انظر،" تابعت. "لقد أخبرتُ وزير الدفاع وأبي زيد أن ثمة دوراً مهماً يجب أن يلعبه القادة العسكريون بخصوص هذا المشروع. وهذا يتضمن مساعدتنا في تجنيد لا يقل عن ٢٠٠ ألف من أفراد الشرطة، لاختيار ثلاثين ألفاً أو أربعين ألفاً، من أجل اتباع دورة تدريبية في الأردن. ويبدو الآن أن قيادتكم تقوم بدفع الآلاف من الشبان العراقيين لاتباع دورة مدتها ثلاثة أسابيع، قبل أن تيم إرسالهم للانضمام إلي وحداتكم."

"جنرال،" قلت، "يجب أن يتوقّف هذا. إن هذا البرنامج يخرّج عناصر شرطة مزيفة، لا تملك الأهلية ولا المصداقية في عيون العراقيين. كما أن هذه الأعداد الهائلة يمكن أن تضلل قيادتنا القومية، وتدفعها للاعتقاد بأن العراق بات أكثر قدرة على الدفاع عن نفسه."

"لا بأس، سيدي،" قال سانشيز، بطريقة رسمية. "أفهم تعليماتك. سوف نتوقف عن عمليات التجنيد."

"هذا جيد." قلت. "لكن ما تزال لدينا مشكلة أولئك الذين هم في سلك الشرطة، وينتظرون رواتبهم. ربما استطعنا أن نبعث بعضاً منهم إلى حماية المنشآت، حيث التدريب يكون أقل أهمية." كان سلك خدمة حماية المنشآت يمثل منظمة كنا نقوم بتجنيد عناصرها لتخريج حرّاس ثابتين، حول وزارات أساسية وأبنية أخرى.

"سوف أقوم بذلك، سيدي،" قال ريك.

كنتُ أربط أحزمة حذائي الرياضي، بعد الفجر بقليل، حين رنّ جرس الهاتف في غرفة النوم. كان ذلك غريباً. كان هذا وقتاً مبكراً جداً لإجراء اتصال هاتفي في العراق، وربما متأخر جداً للبيروقراطيين في واشنطن، لقطع مسافة ثمانية آلاف ميل.

"أبي، أنا سعيد للعثور عليك."

كان ذلك ابني، بول. قاومت الدافع لسؤاله عما إذا كانت والدته على ما يرام.

"هل رأيت صحيفة (نيويرك تايمز)؟"

"كلا، يا بول،" قلت مازحاً. "إن صبي الجرائد، عبد الله، لم يصل بعد."

"من الأفضل أن تراها على الانترنت. يبدو أن الرئيس طلب من مجلس الأمن القومي تسلّم مسؤوليات سلطة التحالف المؤقتة من البنتاغون."

خزّنت النسخة الإلكترونية من صحيفة "التايمز"، ورأيت القصة التي ساقها مراسل واشنطن ديفيد سانغر تحت عنوان (بوش يعدّل مقاربته للعراق): "إن البيت الأبيض قد أمر بإعادة هيكلة كبرى لجهود الولايات المتحدة في السيطرة على العنف في العراق وأفغانستان، من خلال الإسراع بعملية إعادة البناء في كلا البلدين، وفقاً لمسؤولين كبار في الإدارة. إن النسق الجديد، الذي يتضمن إنشاء مجموعة حفظ الاستقرار في العراق، تقوم بإدارتها مستشارة الأمن القومي كونودوليزا رايس، تبدو وكأنها جزء من جهد هادف إلى سيطرة أكثر مباشرة على الأحداث."

هنا، كما تقول القصة الصحفية، ستكون كوندي رايس، وليس رامسفيلد، الشخصية المحورية للرئيس في العراق. لكنني سوف أظل أرفع تقاريري إلى وزارة الدفاع. "هذا يضع حق المحاسبة للبيت الأبيض،" كما قال أحد كبار المسؤولين في الإدارة. وفي نهاية المقالة يذكر المؤلف بأن "مسؤولين في وزارة الخارجية اشتكوا بمرارة لأنهم وضعوا خارج دائرة صنع القرار في العراق، في الوقت الذي ازدادت فيه الهجمات على القوات الأمريكية، وازداد انقطاع التيار الكهربائي، وانخفاض مستوى إنتاج النفط وصل إلى أدنى من مستوياته قبل الحرب."

كانت إعادة الهيكلة حدثاً مفاجئاً بالنسبة لي. لم أستطع من خلال المقالة أن أتكهّن السبب وراء هذا الإجراء. كان ثمة تأكيد بأن بعض الناس يظنون أننا بطيئون جداً في استعادة الخدمات الأساسية. بعثت برسالة إلكترونية إلى ممثل سلطة التحالف المؤقتة في واشنطن روبين جيفري أبين فيها بأن الأرقام تظهر هذا الصباح أن ٥٠٠٠ ميغاواط من الكهرباء يتم توليدها، وأن إنتاج النفط وصل إلى مليون وتسع مائة وأربع وستين ألف برميل في منتصف الليل، وسوف يتجاوز خطّ مليوني برميل في اليوم، هذا الأسبوع. وأضفت أننا على المسار الصحيح في طرح العملة الجديدة، خلال بضعة أيام، وبأن جميع المدارس والعيادات قد تم افتتاحها، وكذلك معظم المصارف. كما أن لسلطة التحالف كوادر وموظفين من مختلف المراتب، وسفراء سابقين، يعملون في العراق، أكثر من أي مكان آخر، باستثناء وزارة الخارجية نفسها.

"ابحث عما يحدث هناك، بحقّ الجحيم،" قلت له.

اتصلت بي رايس بعد الظهر. كانت قد سمعت من روبين عن بعض مخاوفي.

"لقد فهم المراسل الأمر فهماً خاطئاً، يا جري."

لم تكن الغاية من إعادة الهيكلة والتنظيم، التعبير عن الاستياء من سلطة التحالف المؤقتة،، بل كانت الغاية من التحرك الجديد مساعدتنا في الحصول على دعم من البيروقراطية.

"هذا جيد،" قلت. "لكنني ما زلت قلقاً كيف ستُقرأ القصة في واشنطن. إذا أخذنا بعين الاعتبار اللغة المستخدمة، يمكن أن يستنتج الناس بأن علاقة سلطة التحالف المؤقتة مع البنتاغون قد بدأت تضعف، وهذا سيجعلني أدخل في علاقة صعبة مع القادة العسكريين هنا."

"ليس الأمر على هذا النحو،" قالت. "كنا نريد فقط أن نساعد سلطة التحالف المؤقتة في تسريع عملك."

"حسنٌ،" قلت. "إن قصصاً غير صحيحة في جريدة (التايمز)، لا بد أن تترك انطباعاً ما لا يختفي. هم ينقلون حقائق خاطئة، تدخل إلى أذهان الناس، ويكون من الصعب تصحيح المسار."

"أخبرني عما يحدث، يا جري."

وناقشنا الشلل الذي أصاب مجلس الحكم، على صعيد العملية الدستورية.

"ماذا سنفعل إذا استمر مجلس الحكم بالإصرار على انتخاب المؤتمر الدستوري؟" سألت رايس. "لا أعتقد أن الحالة السياسية في واشنطن يمكن أن تستمر في تأييدنا سنة أخرى، والأمور على هذا الحال. هل يمكننا أن نهيئ ما يشبه الحكومة المؤقتة؟"

توقفتُ، ثم فكرتُ كيف أن كل عضو كبير في فريق الرئيس بوش للسياسة الخارجية- باول، رامسفيلد، رايس- كان قد دفع باتجاه هذه الفكرة، خلال الأسابيع الثلاثة الماضية. وشعرتُ أننا بدأنا نصبح وحدنا هنا.

"كوندي، إننا نرهق أنفسنا تماماً لإنجاز هذا الموضوع. لكن المهم هو البدء بعملية سياسية متكاملة، حتى وإن استغرقت عاماً كاملاً."

"حسنٌ. علينا الآن أن ندفع مجلس الحكم إلى التحرّك."

ذكّرتها أنه خلال شهر رمضان القادم، يمكنه، في أحسن الأحوال، أن يساعد في جعل المؤتمر الدستوري ممكناً، مع بدايات ٢٠٠٤.

"ما الذي تقترحه؟"

"انظري، إن الأمن هو مشكلتنا الرئيسية،" قلت. "سبب هذه المشكلة، يكمن جزئياً بإطلاق صدام لسراح ١٠٠ ألف من عتاة المجرمين. هؤلاء الناس لا يقيمون وزناً لأية حكومة عراقية، سواء أكانت مؤقتة أم غير ذلك. أما البعثيون، الذين يسعون للعودة إلى السلطة، فإنهم يدفعون بهم إلى زرع المتفجرات. لا الإرهابيون المحترفون، ولا الجهاديون يكترثون البتة لحكم ذاتي عراقي. وبالتالي الافتراض بأن الإسراع بإنشاء حكومة مؤقتة سوف يصلح مشكلتنا الأمنية، يبدو لي خاطئاً. وإذا كنا نريد أن نخفض من قواتنا في القريب العاجل، سوف نشجع هؤلاء الناس على المزيد من العنف، وليس القليل منه."

"حسنٌ. بتّ لا أدري ماذا يجب فعله،" قالت رايس. "وأسلّم بأنك الشخص الأقرب إلى مسرح الأحداث."

جعلتني ملاحظتها الأخيرة أشعر بوحدة أقل. ولكن كما نوهتُ في رسالتي الليلية إلى فرانسي، "إذا كانت أمريكا لا تستطيع أن تتحمل الضغط، بعد أقل من ستة أشهر، سوف ينتظرنا قرنٌ تعمّه الفوضى من كل حدب."

كان من الواضح أننا كنا نقترب من ذروة الأزمة بخصوص عدم فاعلية مجلس الحكم. بعد بضعة أيام، التقيتُ سكوت كاربنتر وتوم كراجسكي، وهو موظف آخر في وزارة الخارجية، ويشغل منصب النائب لسكوت في المجلس.

"هل تعتقدون، واقعياً، أيها السادة، أن لمجلس الحكم أي مستقبل؟"

كنتُ أحاول أن أعرف رأيهم فيما إذا كان الأعضاء الأربع والعشرون، الذين مازالوا منقسمين إثنياً وعشائرياً، يمكنهم التعاون لمدة كافية، بحيث يساعدون في تشكيل مؤتمر دستوري ممثّل.

"لم يغيروا ألوانهم البتة، خلال الأشهر الثلاثة الماضية،" قال توم.

"أو عادات عملهم،" أضاف سكوت. "هم يريدون المزيد من السلطات، لكنهم لا يعرفون كيف يستخدمونها."

"انظروا،" قلت لهم."من الواضح لي أن الناس في واشنطن بدأت تفقد صبرها. ثمة الكثير من الضغط لنقل السيادة. أنا متأكد أن هذا سيكون خطأ كبيراً. ولكن علينا أن ندفع بعملية دستورية إلى الأمام، مشتغلين حول فتوى السيستاني. فإما أن نجعل مجلس الحكم فاعلاً أو نجعله يتداعى ويسقط."

"حين يجتمع مجلس الحكم، يمكن أن نأخذ بعض أعضاء مجلس الحكم، ونضمهم إلى بعض الوزراء الحاليين، ونطلق عليهم اسم حكومة مؤقتة." اقترح سكوت. "في هذه الأثناء، نترك الأعضاء الآخرين في مجلس الحكم للمساعدة في كتابة الدستور، ونقوم بذلك بحيث نوسّع دائرة التمثيل السني على الطاولة."

كان سكوت يضرب على وتر أساسي. منذ شهور ونحن نحاول أن ندفع بالسنة للانخراط بالعملية السياسية، بشكل أكبر. وبما أننا الآن نملك مستشارين كباراً من سلطة التحالف المؤقتة، موزعين في مناطق السنة الرئيسية، فإن كوادرنا بدأت توسع اتصالاتها مع الزعماء السنة. ولكن كما كنا قد وجدنا من قبل، (وكما سيجد موظفو الأمم المتحدة، ومعهم المسؤولون العراقيون لاحقاً) فإن التعرّف على شخصيات سنية مسؤولة كان صعباً للغاية. إما أن صدام قتلهم أو أخضعهم إلى نظامه.

إن فكرة سكوت عن حكومة مؤقتة يمكن أن تصح، قلت في نفسي. "ولكن كيف نجعل مجلس الحكم ينظم صفوفه؟"

"ماذا لو أننا ركّزنا على الخيار الثاني للجنة التحضيرية، وتحديداً إيجاد صيغة لعملية انتخابات محلية؟" سأل سكوت.

"كنت طرحتُ هذه الفكرة أمام عبد العزيز الحكيم اليوم الفائت، وكان ما يزال مصراً على إجراء انتخابات عامة كاملة،" قلتُ مذكراً. "ولكن ربما كنا نستطيع العمل ضمن إطار هذا الطرح. عد إلي غداً بأفكار جديدة."

جلستُ خلف الطاولة الرخامية الكبيرة لبضع دقائق، مستغرقاً في التفكير. إن مفهومهم منطقي. غير أن التطورات في العراق، لسوء الحظ، غير منطقية، دائماً. كان السيستاني بالتأكيد يعمل وفقاً لمستوى عقلاني مختلف عن ذاك الذي نراه نحن الغربيين. من مقره الحساس في النجف، كان السيستاني يرى العراق، والعالم الأوسع، من منظور اللاهوت الشيعي الإسلامي، ومن زاوية سياسية صارمة، لا تهادن. كان قد أصدر الآلاف من الفتاوى المتعلقة بطيف واسع من القضايا المربكة، فتاوى تتعلق حتى بكيف وأين يجب أن يشرب المؤمنون الماء. وبالرغم من صورته المترفعة، إلاّ أنه كان يؤثر على المسار السياسي، وإن كان بشكل غير مباشر. كنتُ أشكّ أنه سيتراجع عن موقفه بأن أعضاء المؤتمر الدستوري يجب أن يتم انتخابهم، بما أن هذا سوف يضمن أغلبية شيعية في المؤتمر.

ربما استطاع فريق الحكم في سلطة التحالف الخروج بعملية تمكّن مجلس الحكم من الانعقاد واختيار مؤتمر دستوري ممثل، يتمتع بأغلبية شيعية، والتي يمكن أن تعوض عن انتخابات شاملة وعامة دعا إليها السيستاني. وإلا فإن سلطة التحالف المؤقتة، والعراقيين عموماً، سيصلون إلى طريق مسدود، ومأزق يتأرجح بين الاحتلال والسيادة.

يجب على طرف من الأطراف أن يتزحزح عن موقفه.

في وقت متأخر من ليل العاشر من تشرين الأول، كنت أجلس خلف مكتبي حين سمعت إطلاق عيارات نارية، وتبادل إطلاق النار، عبر النهر.

"معارك كبيرة في مدينة الصدر، سيدي،" قال الكولونيل نورود.

كانت الضجة تتعالى من بعيد، حين دخلتُ منزلي، الأقرب إلى النهر، بعد ساعة أخرى. وتلقينا المزيد من التقارير. قام أكثر من ثلاث مائة شخص مسلّح بالهجوم على كتيبة الفرسان المدرعة الثانية، المسؤولة عن الأمن في المدنية التي تقطنها أغلبية شيعية، تزيد عن مليوني شخص، يعيشون في ظروف صعبة، كان قد فرضها صدام. قُتل اثنان من جنودنا وجُرح عدد آخر.

عبد العزيز الحكيم

د.احمد الجلبي

يتبع